رسالة عاشقة أغرقت إمبراطورية

رمضان مصطفى سليمان

عاصفة في دير باسترانا

كانت إسبانيا في أواخر القرن السادس عشر الميلادي تتلألأ كجوهرة فوق تاج الإمبراطورية الإسبانية. ذهب المستعمرات يتدفق إلى القصور الملكية ، والأمراء يتباهون بثراء لا يُضاهى. غير أنّ خلف الأبواب المذهبة ، كانت الشرور تتجمع بصمت ، كعنكبوت ينسج شباكه في العتمة، وتتهيأ لعاصفة تبدأ من دير متواضع على أطراف مدريد... لتصل رعشتها حتى عرش الملك فيليب الثاني المتدين ظاهريا .

في الطرق الملتوية المؤدية إلى الدير، كان موكب الأميرة " أنا دي مندوزا " يسير بعظمة و شوخ ،

ارتفعت ضحكات نسائية صاخبة ماجنة من عربات منسدلة الستائر السوداء . تموجت في الهواء كأنها خمر ثملة تسكر من يراها ، تحمل كلمات فتيات ثريات مترفات يختبئن وراء نقاب الفضيلة ، هن وصيفات الأميرة " أنا دي مندوزا " .

- **إحداهن هامسة بخفة** و دلال :

"من يصدق يا فتيات أننا سنعيش في الدير كما وعدتنا الأميرة ؟ سنكون كما في القصر ، لا فرق ، نضحك ونمرح بلا قيود "!

- **أخرى بضحكة ساخرة** مجلجلة :

" والرجال؟ آه و الرجال ، ألسنا محرومات منهم هنا في هذا الدير العتيق ؟ ألم تقل لنا الأميرة أن شيئاً لن يتغير في حياتنا ؟ "

- **ثالثة بانفعال ماكر** خبيث :

"ألم تقل أيضاً إن من يضرب الدف أولاً لا بد أن يرقص الجميع ؟ "

وانفجرت القهقهات الصاخبة العالية، تهتز معها العربات المزينة بالورود الملونة ، يقودها فرسان يلمع على دروعهم حرف " S " مرسوماً بماء الذهب البراق، كإشارة لسر مظلم يتقدّم الموكب العظيم .

*

في البساتين الشاسعة القريبة من الدير، كان الراعي **روميلني** يركض لاهثاً كالمجنون ، يلهث صدره علوا و هبوطا كطير جريح من شدة الانفعال .

طرق بوابة الدير بعنف ضربات متتالية ، فخرج الحارس **جوميز** عابساً:

- **جوميز غاضباً:**

" أيها التعس الذميم ، ما بالك تهرول؟ هذا دير راهبات كما تعرف ، أكثرهن عذراوات... كيف تجرؤ أن تطلب الدخول ؟ أغرب ! يا غراب البين ! ".

- **روميلني متوسلاً:**

" لا شأن لي بالدخول أو الخروج ، بلغ الخبر أيها المخبول ! استدعِ الرئيسة إيزابيل، فالأمر جلل ، و المصاب فادح ، أو فلتأتِ بنفسها إن شاءت ".

لم يمضِ وقت طويل حتى أطلت الرئيسة " **إيزابيل دي سانت دومينيك** " ، بوجهها المتجهم العبوس ، ويديها المتشابكتين على صدرها بخشوع وقلق . فقد عرفت أنّ هذا الراعي لا يطرق بابها إلا حاملاً نذير شؤم ، أنه غراب البين .

- **إيزابيل متوجسة:**

"قل لي، يا روميلني... ما الأمر الجلل الذي تحمله في جعبتك هذه المرة ؟ "

- **روميلني متلعثماً:**

" إنها... الأميرة أنا دي مندوزا! في طريقها إلى هنا مع وصيفاتها وحراسها. لقد رأيت موكبهم بعيني في عربات الأميرة . أيتها الأم المبجلة، لا تسمحي لهن بدخول الدير... فالخزي يسير حيثما حلت ".

ارتجفت يد الرئيسة، وتذكرت كيف جاءها الراعي قبل أعوام قليلة يحمل خبر مصرع ولي العهد الغامض . ومن يومها ارتبط في ذهنها بظلّ الكوارث أن رومنتلي لا يأتي إلا بالكوارث .

وصل الموكب أخيراً، تتقدمه **الأميرة " أنا دي مندوزا "**، شابة في الخامسة والعشرين من عمرها ، جميلة جمالاً باهرا ، يطل من عينيها بريق شهوة ذئب جائع ، كانت أرملة، لكن أرملتها لم تحمل وقار الحداد ، بل سطوة الرغبة الجامحة وسحر الخطيئة البراق .

وقفت عند بوابة الدير، ثوبها الأسود المطرز بخيوط فضية يتلألأ مع ضوء الشمس ، تبتسم ابتسامة ساخرة ساحرة كأنها جاءت لتغزو القلوب ، لا لتتعبد.

- **الأميرة ضاحكة بسخرية لاذعة و بطريقة ملتوية الكلمات :**

"أهلاً، أيتها الأخت المبجلة " إيزابيل "... تبدين شاحبة اليوم ، هل أنت مريضة ، أم خائفة من شيء ! ألا يليق بي ثوب الراهبات الأسود ؟"

- **إيزابيل مرتبكة مضطربة :**

يا صاحبة السمو، الدير يرحب بكِ... ولكن"...

- **الأميرة مقاطعة باحتقار و مقت شديد :**

"ولكن ماذا؟ وصيفاتي؟ رجالي؟ الغرف؟ هل كل شيء جاهز ، زوجي الراحل أغدق عليكن الذهب، وأنت ترفضين زيارتي ؟ "

ثم تابعت بلهجة آمرة:

غداً، سيأتي عمالي ليشيّدوا جناحاً خاصاً لي داخل الدير. جناح يطل على الحقول الخضراء... يحرسه رجالي الأشداء . وهذا

أمر لا نقاش فيه و لا جدال ، سنبني ما نريد من ملاحق في الفناء الخلفي للدير ".

انحدرت دمعة وحيدة على خد الرئيسة إيزابيل، فقد أدركت أن الليل قد فتح بابه لشيطان متجسد في صورة الأميرة .

مرت الشهور كليالٍ مظلمة. الحرس يتجولون كذئاب جائعة بين الممرات، وصيحات الوصيفات الهادرة الفاجرة تتعالى في الليالي حتى ارتجت جدران الدير العتيقة. التلميذات الصغيرات سقطن في شراك الخطيئة، والراهبات يبكين بصمت كمن يشهد خراب الهيكل.

بعد خمسة أشهر، وُجدت ثلاث راهبات بريئات مشنوقات في غرفهن. كتبن بخط مرتجف كلماتهن الأخيرة " : *الهروب إلى الله خير من البقاء في جحيم البشر* " .

في مكتبها، كانت إيزابيل تبكي بحرقة، رأسها على كتف وكيلتها **فورتينيه**.

- **إيزابيل بصوت مخنوق :**

"قيل لي إن الملك نفسه... فيليب... جاء إلى هنا متخفيا في ثياب راعٍ، ودخل جناح الأميرة متخفياً ".

- **فورتينيه مذهولة :**

" هذا جنون! الملك كما نعرف يمقتها كل المقت، ولهذا نفاهَا إلى الدير "!

- **إيزابيل بمرارة:**

"يمقتها ؟ آه ، بل يعشقها حتى الهلاك... حتى أنه فكر أن يتزوجها بعد أن يتخلص من زوجته القبيحة الدميمة ".

كانت الكلمات كسكاكين تغرس في قلب إيزابيل، التي شعرت أن السماء قد تخلّت عن بيتها المقدس.

X

في جناحها الفخم، كانت الأميرة تجلس أمام مرآة ضخمة ، و خلفها وصيفتها تشط شعرها الأصفر الذهبي ، كانت تحدّق في انعكاس وجهها في المرآة ، كأنها تخاطب روحاً أخرى تسكنه :

"لماذا أخشاك يا مرآتي؟ هل أنا شيطانة كما يزعمون؟ أم امرأة كسائر النساء ، أن رغبة الحياة تسري في دمي ، إن عشقي لهذا الجسد الممتلئ حيوية يعشق الحياة ، أ ليس للجسد رغباته ؟ "

ثم انفجرت في ضحكة عالية مجلجلة ، تضع مساحيقها المبهرجة ، كما لو كانت تستعد لمعركة . في داخلها، كانت تتصارع روحان : طفلة أُجبرت على زواج سياسي باهت حسب التقاليد ، و جسد امرأة قررت أن تنتقم من كل قيود فرضتها عليها التقاليد البالية لآسرتها و للمجتمع المخملي .

ذلك الجرح النفسي الأليم جعلها تسعى للسيطرة على كل شيء حولها ، و خصوصا قلوب عظام الرجال ، لا للحب ، بل للتسلية ؛ للفضيحة، لا للتوبة. للدنس المقدس ،

كانت كل ليلة تقيم مآدب عشاء سرية حافلة في جناحها الخاص ، ترقص فيها وصيفاتها كطيور جريحة ، ويختلط فيها النبيذ بالدموع .

مع مرور الأيام، صارت أخبار الدير فضيحة تلوكها ألسنة مدريد كلها . وعندما وصل الصدى المرعب إلى الملك ، تردّد بين نفي الأميرة أو إبقائها . لكن قلبه المعلق بها ظل يتأرجح بين الرغبة الجامحة والسياسة .

أما الرئيسة " إيزابيل " ، فقد ذبلت مثل شمعة تحترق ببطء. كانت تسير في أروقة الدير كروح تائهة ضائعة، تصلي بحرقة، عسى أن تزول تلك الغمة ، وتسمع في الليل صدى صرخات الراهبات .

وفي إحدى الليالي، حين علا صخب جناح الأميرة، رفعت " إيزابيل " يديها إلى السماء وقالت:

"يا رب، إن كان هذا بيتك، فاحمه... أو خذني إليه قبل أن أرى نهايته".

ولم يمضِ وقت طويل حتى اندلعت فضيحة كبرى، جعلت مدريد كلها تتحدث عن "عاصفة الدير"، الحدث الذي هزّ عرش فيليب وأطلق شائعة لن تُمحى:

أنّ الملك نفسه صار أسيراً لسحر امرأة أرملة، حولت ديراً مقدساً إلى مسرح للعار و الدنس .

ورقة هزت الإمبراطورية

كانت أصداء الجرس تتردد في أرجاء " دير باسترانا " ، كأنها أنين يخرج من أحجار عتيقة أنهكها الخوف. في تلك الليلة المشؤومة، حمل الرهبان السيدة فورتينيه وقد شلّها المرض المفاجئ إلى مدريد .

هناك، بين أروقة القصر البارد، وقفت أمام الكاردينال " أنطوني " ، عيناها غائرتان وصوتها يتكسر كالزجاج. اعترفت بكل ما حدث، بكل ما رآه الدير وما أخفاه. لكن الكاردينال لم يرفع عينيه، واكتفى بأن قال بجمود :

"الأميرة في حماية الملك... لا أحد يجرؤ على المساس بها".

في تلك اللحظة، تسللت أنفاسها الأخيرة من بين شفتيها المرتجفتين، كمن يودع حياة أثقلتها حمل الأسرار. لكنها قاومت الموت للحظة، رفعت رأسها المتعب، وهمست :

"دعني أقابل ولي العهد... فقط مرة واحدة".

حين حضر الأمير فيليب، ذلك الذي سيجلس يومًا على عرش إسبانيا بعد والده ، ألقت عليه نظرة وجلة يائسة، نظرة امرأة لم تعد ترى في الدنيا غير بصيص نجاة أخير. توسلت إليه :

"أنقذ الدير... أنقذ ما تبقى من طهارته".

غير أن الأمير ابتسم بسخرية باردة، تلك السخرية التي لا تخرج إلا من أفواه الملوك الذين ورثوا القسوة كما يُورث الدم. قال لها باستهانة:

"لا أحد يفعل ما لا يريده الملك".

حينها تجلّى الغضب الشديد في عينيها، وصرخت بصوت اخترق جدران القاعة :

"ألهذا زار الدير متنكراً؟ ألهذا فعل فعلة الدنسة بخطيئة لا تغتفر؟"

لكن الصرخة انطفأت سريعًا، كشمعة في مهب ريح، وأسلمت الروح بين يديه ، أسلمت الروح حين أحست لا أمل .

بلغت صرختها الأخيرة مسامع الملك العجوز. كان وحده في جناحه، يقرأ صلواته ببرود، وحين سمع، ارتعش قلبه تحت وطأة الخوف. أمسك بريشة مرتجفة، وكتب ورقة يتيمة ختمها بخاتمه الملكي:

"على الأميرة " آنا دي مندوزا " مغادرة " دير باسترانا " والعودة إلى قصرها، ولا تغادره إلا بإذن خاص مني ".

ورقة واحدة، لكنها كانت أثقل من السيوف. ورقة أسقطت القناع عن وجه إمبراطورية بأكاملها. لقد خرج السر من بين جدران الدير ليطفو فوق سطح البلاط الملكي. انتشر الهمس في أزقة مدريد كما تنتشر النار في هشيم الصيف، واتسعت شقوق الفضيحة في جدران العرش.

في الدير، جلس رئيسه، قسيس هرم، أمام المذبح الحجري. كان قلبه يتأرجح بين الألم والخيانة، وبين صلاته التي لم يعد يثق أن السماء تسمعها. لقد رأى بعينيه كيف سُحق الطهر تحت أقدام الملوك، وكيف غُسل وجه الإمبراطورية بالدموع، بينما يظن أهلها أنها مزينة بالذهب والقداسة.

كانت الورقة أكثر من قرار يصدره الملك ؛ كانت مرآة تعكس حقيقة حكم يقوم على المكر و الخداع والفساد. ملك يتوشح برداء الدين المقدس ، لكنه يخفي تحته ثياب الرذيلة الدنسة، ملك يحكم إمبراطورية مترامية الأطراف، لكنها في داخلها لم تكن سوى بيت من زجاج مهشّم.

وهكذا، ظل رئيس الدير يتأمل الورقة الملكية ، مطرق الرأس ، وهو يدرك أن التاريخ لا يُكتب بالحبر فقط ، بل بالدموع والخيانات ، وبالفضائح التي لا يغطيها ختم ملكي.

أي تاريخ هذا الذي يكتبه مؤرخ ، ليس له هم إلا ارضاء صاحب السلطة ، مهما كانت الحقيقة .

فيليب الثاني:
القديس الذي تحالف مع الشيطان

كان فيليب الثاني، الملك الكاثوليكي المتشدّد في الظاهر، والإمبراطور الذي ارتجفت أمام اسمه أوروبا كلها رعبًا، ليس سوى رجلٍ ممزّق بين عقيدته الحديدية وشهواته المشتعلة . خلف ذلك الوجه الرزين ، المتوّج بالصرامة و العبوس، كان يختبئ عالمٌ متصدّع الأركان ، تئن فيه الرذيلة كما يئن جدارٌ قديم تحت وطأة الزمن. لم يفلح صوت الأجراس التي تطلقها الكنيسة كل يوم ، ولا تراتيل القداس داخل المذبح ، في إسكات صرخاته الداخلية ، التي تنطلق في صمت رهيب بين ضلوعه .

ذلك الرجل الذي لم يتردّد في أن يعصر بيديه الحديديتين عنق ابنه وولي عهده " دون كارلوس " ، حتى لفظ أنفاسه الأخيرة بين يديه ... ثم جثا أمام جثته الباردة، يستدعي ثلاثة قساوسة ليقرأوا تعاويذ الخلاص التي يرددونها دون شعور .

كان فيليب يظن أن الصلاة كفيلة بغسل الدم الملتصق بيديه، دم ابنه ، دم الأبرياء ، دم الشعب التي يغزوها . ومع ذلك، كلما جلس أمام كرسي الاعتراف ، كان يهمس بصوت مبحوح إلى الكاردينال " أرجوني " :

"سأطلب من قداسة البابا في روما أن يرسمك قديسًا لإسبانيا... وبذلك، سيكون من حقك أن تشفع لي يوم الحساب، وتردّ عني نار جهنم ".

لكن... أي نار أشد من تلك التي كانت تضطرم في صدره كل ليلة حينما يريد أن ينام ؟ أي عذاب أشد من ذكرى الأرملة الساحرة " دونا آنا دي مندوزا " ، أرملة صديقه الأمير " جوميز دي سيلفا " ؟ لقد ألهبت خياله الجامح، وأحكمت وثاق قلبه المستعر. كانت، في عينيه، خطيئة تجسّدت في امرأة، ولعنة تتنكر في ثوب القداسة .

*

حين ترددت الألسنة في كل مكان بقصص زياراته السرية إلى " دير باسترانا " ، حيث كانت تقيم الأميرة " دونا آنا مندوزا " ، تعالت الهمسات حتى بلغت أبواب القصر. ماتت الراهبة فورتينيه، وكيلة الدير من هذا الهم الذي تراكم فوق صدرها ، وو لم يسمعه أحد ، في ظروف غامضة، فاشتعلت الشائعات كالنار في الهشيم . عندها قرّر فيليب أن يخمد الفضيحة بيده . جلس إلى مكتبه الفخم، وقلمه يرتجف بشدة ، وكتب قرارًا ملكيًا :

"على الأميرة " آنا دي مندوزا دي إيبولي " ، أرملة صديقنا الراحل جوميز دي سيلفا، مغادرة دير باسترانا، والعودة إلى قصرها، وعدم مغادرته لأي سبب إلا بإذن خاص منّا، نحن فيليب الثاني، الكاثوليكي جدًا، ملك وإمبراطور إسبانيا العظيمة ".

وصل القرار إلى الأميرة. قرأته بعينين تبرقان سخرية، ثم انفجرت ضاحكة ضحكة ماجنة، وقالت لراهبها و كاتم أسرارها الخصي " فرانكو " :

ـ "فرانكو! هل قرأت ما كتبه ذلك العربيد المنافق ؟ يأمرني اليوم بالعودة إلى قصري ، وهو نفسه الذي أجبرني بالأمس على دخول الدير ترضيةً لزوجته العجوز الشمطاء الدميمة ! أين كان هذا الأمر حين زحف إليّ متنكّرًا ليلا في ثياب الراعي، يستجدي نظرة مني عند باب الدير؟! هه... بمَ تنصحني ؟ " .

تنهد " فرانكو " ، وصوته يثقل بالحزن:

"مولاتي، بقاؤنا هنا صار خرابًا. رئيسة الدير تبكي، والراهبات ينتحرن واحدة تلو الأخرى. لا مفر من العودة إلى القصر. أنصحك أن تهادني الملك... حتى لا يحكم عليك بالسجن".

رفعت آنا حاجبيها في عناد طفولي وقالت:

"أهادنه؟ أليس أنت من نصحتني يومًا أن أشترط عليه طلاق زوجته إن أرادني ؟ " .

ابتسم فرانكو في مرارة:

" لقد أرسل فعلًا إلى البابا من يتوسّط له ، لكن البابا رفض طلبه بإصرار ".

ساد الصمت لحظة، قبل أن تقول آنا ببطءٍ ماكر:

"إذن، لو جاءني فيليب زائرًا ؟ كيف أمنعه من الدخول، وهو وصيّ على أولادي باسم صداقته لزوجي ؟ "

*

في تلك الليلة، كان فيليب يجلس وحيدًا في قصر" الإسكوريال " ، تحت ضوء شمعة مرتجفة اللهب البرتقالي . رفع يديه المرتعشتين إلى وجهه ، وأخذ يخاطب نفسه بصوتٍ تكسّره المرارة:

"أأنا ملك على الرعية ، أم عبد لهذه الفاجرة ؟! ملك على أوروبا، وعبد لامرأة ؟! لقد غلبتني يا آنا... غلبتني كما يغلب الشيطان القديس ! كم مرة أقسمت أمام الله أن أنساك؟ كم مرة بكيت بين يدي الكاردينال ؟ كم مرة حاولت أن أطرد شيطاني ؟ "!

صمت قليلًا، ثم ضرب بيده على الطاولة بعنف:

"ولكن... ما ذنبي إن كان الله قد ابتلاني بوجهك الفاتن الساحر المشرق كضوء القمر ؟ أأُدان على قلبٍ لم يختر هواه بل فرض عليه ؟ "!

ثم عاد إلى الهمس، كأنه يخاطب ظلًا يراه أمامه:

"يا آنا، أنت لعنتي ونجاتي. إن ابتعدت عنك، ماتت روحي. وإن اقتربت منك، هلكت دنياي وآخرتي ".، و لا وسط أبدا بين الطرفين " .

*

لم يطل الانتظار حتى زارها في قصرها. كان الليل يلف المكان بعباءته السوداء ، وحين دخل متخفيا كعادته ، وجدها جالسة على مقعد مخملي أحمر، وعيناها تلمعان كسيفين في الظلام الحالك . ابتسمت ابتسامة ساخرة :

"أهلاً بملك إسبانيا العظيم... ماذا جاء بك الليلة ، أيها الكاثوليكي جدًا ؟ أتبحث عن الغفران عند امرأة لتعطيك صك الفران ، بعدما رفضك البابا ؟ "

اقترب منها، وصوته يرتجف بين رجاء وغضب:

"آنا... كفى! لا تلعبي بي كطفل غرير . إنك تعرفين أنّ قلبي أسيرك ، و أن عيني لا ترى سواك ".

قهقهت بصوتٍ مجلجل رنت في ارجاء القاعة :

"أسير؟! وأنت الذي سجنت ابنك وقتلته بيديك؟ كيف يعجز قاتل عن قتل امرأة لا حول لها و لا قوة ، امرأة ضعيفة ؟ "

أطرق رأسه، كأن كلماتها سهام اخترقت صدره. ثم قال بصوت متهدّج:

" لست أعجز عن هذا ... ولكني أخشى بقتلك أقتل نفسي أيضًا حزنا و كمدا ".

أجابت بابتسامة باردة:

"إذن ستظل تتعذب أبدا ، يا فيليب... فبينك وبيني يقف الله الذي لا يغفل ، يقف البابا الذي لا يقبل الحرام ، وتقف زوجتك الشرعية بنظراتها القاسية. لن تنالني إلا بثلاثة قبور: قبري، وقبرها، وقبرك ".

*

عاد فيليب إلى قصره تلك الليلة محطّمً الخطوات مكسور الفؤاد . جلس في عتمة الكنيسة ، يحدّق في الصليب، والدموع تنحدر على وجنتيه. قال لنفسه في مرارة:

"أيكون الشيطان أقوى من الله في قلبي؟! أأنا قديس يطارده إبليس، أم شيطان يتنكر في ثوب القديس ؟ "

كان يعلم أن التاريخ سيذكره ملكًا عظيمًا، لكن قلبه يعرف أنه لم يكن سوى إنسانٍ ضعيف، مزّقته شهوة، وأحرقه صراع بين تاج الأرض وعرش السماء.

وفي صمت الليل، ظل صدى صوته يردد بعنف :

"القديس الذي طارده الشيطان... ذاك أنا".

ثلاثة رجال وامرأة

في قلب مدريد المعتمة، حيث تختبئ الفضائح خلف جدران القصور الباذخة، اجتمع القدر ليصنع مسرحًا تراجيديًا عبثيًا أبطاله ثلاثة رجال وامرأة.

أول الرجال : فيليب الثاني، ملك إسبانيا الكاثوليكي ظاهريا ، ممزق بين شهوته الملوثة بالدماء ورغبته في التوبة من جبل الخطايا الذي أثقل روحه ، و أشبعها جريمة قتل ولده وولي عهده " دون كارلوس " . كان قلبه يصرخ ليلًا في صومعته، يجلده ندم لا يزول، لكن جسده يرتعش كلما لاح طيف الأميرة " **آنا دي مندوزا** " الأرملة الحسناء اللعوب التي سرقت روحه بعد أن سرقت قلب زوجها الراحل.

الثاني : الوزير أنطونيو بيريز، الفتى الإيطالي وضيع الأصل و النسب، ألينهم لفظًا ، وأقدرهم على التسلل إلى قلب المرأة وعقلها ومالها . أصبح بالدهاء والخلابة صاحب الكلمة الأولى في شؤون إسبانيا الداخلية، ومالك السلطان الخفي على قلب " آنا دي مندوزا " ، التي وهبته جسدها وثروتها دون حدود ، سرًا من الملك الذي لا يخفى عنه شيئا . .

الثالث : الأمير فرناندو دي إسكوفيدو، قائد الجيش الإسباني في الأراضي الواطئة. جاء مدريد في وقت بالغ الخطورة، يرفع راية الواجب العسكري في الظاهر، لكنه في الباطن يطالب بحق غامض : حقه في الأرملة اللعوب .

جلس الثلاثة في قاعة واسعة، يحيط بهم الصمت الثقيل كأجنحة غربان سوداء . وفي منتصف القاعة ، ظهرت " آنا" بثوبها الأسود المطرز بخيوط الفضة ، كأنها سيدة الظلال، جلست شامخة ترقب الحوار بين الثلاثة .

قال إسكوفيدو وهو ينفث الغضب من عينيه :

« جئت يا مولاي لأعرض الموقف العسكري في الأراضي الواطئة ، حيث الثورة تشتعل كالبركان الثائر ، والدين يعتصر النفوس فيه ، لكن... لي أيضًا حق لا أفرط فيه .«

رفعت آنا حاجبها بابتسامة ساخرة :

«حقك؟ أتعني أنا ، أيها العجوز المتصابي ؟«

ارتبك قليلًا، ثم قال في صراحة فجة :

«كنتُ صديق زوجك قبل أن يموت. لا أقبل أن يسلبني ملك أو وزير ما أراه حقي الطبيعي.«

ضحكت آنا في مرارة:

« ثلاثة رجال يطالبون بجثتي وأنا حية، أيها السادة. ألا يردعكم دين؟ ألا يخجلكم خلق ؟«

قال إسكوفيدو ببرود:

«الدين يترك مكانه أحيانًا للعُرف و التقاليد ، والعُرف يقفز فوق الأخلاق الجامدة . وإن لم تحمِني شراكة الصداقة القديمة، فسيحميني سيفي .«

تدخّل بيريز بصوت مخملي :

«أيها الجنرال، لا تخلط بين الحب والميراث. هذه السيدة لم تُخلق لتكون غنيمة، بل لتكون سرًّا، وأنا من فك رموزه.«

صرخت " آنا " فجأة صرخة غاضبة مما يجري حولها، وكأنها تخاطب القدر نفسه :

« أنتم الثلاثة وحوش بثياب نبلاء، تحاصرونني كذئاب جائعة. لكن اعلموا، أنا لست الحمل الضعيف، أنا الجرح والسكين معًا.«

فيليب الثاني، جالس في عزلته صلمتا ، يسمع الأصوات في رأسه أكثر مما يسمعها في قصره. يخاطب نفسه في مرآة الليل:

«لقد قتلتُ ابني بيدي، فهل أخشى الآن خيانة وزير أو جموح جنرال؟ آه يا إلهي، أتبتغي مني التوبة أم مزيدًا من الدم ؟«

حين دخل إسكوفيدو يعرض موقفه، ثار الملك بجنون المفترس:

« أيها الخائن، ما جئت مدريد إلا لتتآمر مع أخي " دون جوان " . أتحسب أني غافل عن نواياك؟ اغرب عن وجهي قبل أن أغرس سيفي في صدرك.«

ارتعش الجنرال بشدة ، لكنه تماسك وقال:

« مولاي، إن الدماء لا تطفئ نار الثورة، بل تؤججها. وحده التسامح قد ينقذ تاجك.«

فغضب فيليب حتى تناثر الزبد من فمه:

«التسامح؟ مع بروتستانت أنجاس؟ إن دمهم أرخص من دم الكلاب. اخرج... اخرج إلى الأراضي الواطئة، فهناك قبرك.«

لكن إسكوفيدو لم يخرج، بل بقي في مدريد، يخطط لإقصاء الوزير منافسه.

*

جلس فيليب في صومعته وهو يئن:

«أيها الشيطان يا صديقي ، أعد إليّ " آنا " ... أعدها إليّ، ولو بصفقة مع جهنم.«

عندها استدعـى أنطونيو بيريز وقال له بصرامة متكسرة:

«انطونيو... خلصني من إسكوفيدو. لقد صار وجوده خطرًا على عرشي كما هو خطر على قلبي.« .

بيريز في داخله فكر :

» *:أمر ملكي مكتوب؟ إنها حبل نجاة بقدر ما هي حبل مشنقة.«*

ثم قال في تردد:

«مولاي، الاغتيال لعبة محفوفة بالنار تصيب صاحبها ، كما تصيب منفذها .«

« أعرف، لكني أمنحك كلمتي... كلمة ملك.«

كتب فيليب أمرًا مكتوبًا بيده، فكانت الورقة كوصمة عار تُدين الملك وتمنح الوزير سلاحًا مزدوجًا.

*

في الليل، جلس بيريز مع آنا، وقد أراها الورقة الموقعة من الملك .

قالت بابتسامة ماكرة:

« بهذه الورقة حكم عليك أيضًا بالموت، يا أنطونيو. ستغدو هدفه بعد إسكوفيدو.«

« أنا؟ لا، يا حبيبتي. هذه الورقة سلاحي.«

«بل قبرك.«

ومع ذلك، لم يستمع. لجأ إلى القاتل المأجور، الكابتن " فافيل " ، الذي اشترط عفوًا ملكيًا عن جرائمه السابقة و اللاحقة . فزوّر بيريز التوقيع، وسارت المؤامرة إلى دمها الحتمي.

وفي ليلة معتمة، ترصّد " فافيل " الجنرال العائد إلى داره، وأسقطه من جواده، وغرس سيفه في قلبه.

نطق إسكوفيدو بآخر أنفاسه:

«قتلني فافيل... انتقم لي يا فاسكين.«

*

انتشرت الأخبار كالنار، وارتج القصر بالفضائح. ابن إسكوفيدو يطالب بالتحقيق الفوري ، والملك يتلوّى في عزلته ، يبحث عن الورقة التي صارت سيفًا مسلطًا على رقبته.

لكن بيريز أنكر امتلاكها، وابتسم في خبث:

«مولاي، أي ورقة تعني ؟«

«أنت تعلم... اللعنة عليك، أعدها إليّ.»

صمت الملك قليلًا، ثم قال في برود قاتل:

«إذن، عد إلى دارك... ولا تغادرها إلا بأمري.»

وما إن غادر بيريز، حتى استدعى الملك وزير العدل:

«اقبض عليه، وفتش داره ودور تلك العاهرة... لا تدع ورقة واحدة، ولو كانت رسالة غرامية.»

*

هكذا انغلقت الدائرة: ثلاثة رجال وامرأة، وكل منهم ظن أنه الصياد، فإذا به فريسة. " فيليب " ممزق بين الدين والدم، " بيريز " عالق بين الورقة والخيانة، " إسكوفيدو " ممدد في قبره الأبدي، " وآنا دي مندوزا " تضحك كأنها شيطانة تتغذى على هلاك عشاقها الثلاثة .

ويبقى السؤال المعلق في الهواء:

هل سيستعيد الملك الورقة اللعينة ؟ أم ستظل شاهدًا خالدًا على عبثه و دمويته، وسيفًا مسلطًا على رقاب الجميع ؟

فيليب الثاني والورقة الملعونة:
من المؤامرة إلى السقوط

يُعَدّ الملك **فيليب الثاني ملك إسبانيا** (1527–1598)إحدى الشخصيات الأكثر إثارة للجدل في التاريخ الأوروبي. فقد جمع في شخصيته تناقضات العابد الورع والملك المستبد، العاشق المهووس والسياسي الحاذق، حتى غدا رمزًا لصراع الداخل والخارج معًا: صراع الهوى والسلطة، الإيمان والدم، الإمبراطورية والعزلة النفسية. وكانت "ورقة" واحدة، بخط يده، بداية خيوط مأساة أفضت إلى انهيار القوة الإسبانية وتحويلها من إمبراطورية عظمى إلى قوة ثانوية في السياسة العالمية .

*

الورقة الملعونة والمؤامرة

منح فيليب وزيره **أنطونيو بيريز** ورقة بخط يده يأمر فيها بالتخلص من القائد العسكري **دون خوان دي إسكوفيدو** .لم تكن الورقة مجرّد أمر ملكي، بل كانت سيفًا مسلطًا على عنق الملك ذاته، إذ تحوّلت لاحقًا إلى أداة ابتزاز سياسي.

كان الدافع وراء الجريمة مركّبًا: سياسيًّا للتخلّص من منافس قوي، وشخصيًّا بسبب صراع غرامي على قلب الأميرة **آنا دي مندوزا**، المرأة التي أطلقت عليها الألسن في مدريد لقب " فاسقة أوروبا ."ومن هنا تشابكت السياسة بالشهوة، والخلاص الديني بالهاجس الجنسي، حتى صار الدم امتدادًا للعاطفة في بلاط هابسبورغ.

*

هوس الملك بالورقة

أدرك فيليب أن بقاء تلك الورقة خارج قبضته يعني فضيحته أمام النبلاء، وربما أمام أوروبا كلها. لذلك أمر بتفتيش قصور بيريز ومندوزا تفتيشًا دقيقًا، وجُمعت صناديق من الأوراق والرسائل. جلس الملك بنفسه يفحصها ورقةً ورقة، في مشهد أقرب إلى الهوس المرضي منه إلى التصرف السياسي الرصين. لم يجد الورقة المنشودة، لكنه اكتشف ما هو أخطر: رسائل بين بيريز وسفراء الملكة **إليزابيث الأولى**، تكشف خيانة عظمى ودعمًا لثوار الأراضي الواطئة.

عندها تفجّر الغضب في قلب الملك :

"أنا الذي أردت أن أتزوج إليزابيث، وأضم إنجلترا إلى عرشي؟! سترين يا إليزابيث... سأمحو بلادك من الوجود".

*

أنا دي مندوزا: العشيقة واللاعبة السياسية

في قلب هذه الدراما تقف الأميرة **آنا دي مندوزا** ، امرأة تتقاطع في شخصيتها الرغبة الجامحة مع الذكاء السياسي. فهي لم تكتفِ بأن تكون عشيقة الملك أو حليفة بيريز، بل تحولت إلى قوة فاعلة تتحدى البلاط الملكي. دخلت القصر الملكي متحدية الحرس ، وهددت الملك بفضح أسراره. وبينما كان فيليب يتحدث عن الخيانة والمؤامرات ، انهار فجأة أمامها ، راكعًا عند قدميها، متوسلاً حبها، في مشهد يكشف هشاشة نفسية عميقة وراء قناع الجلالة والجبروت.

لكن علاقة الملك بها لم تتجاوز حدود الضعف والانكسار العاطفي ، إذ لم يفِ بوعوده بإطلاق سراح بيريز، بل خفف ظروف سجنه فقط. أما الأميرة فكانت ترى في الوزير ملاذًا عاطفيًا، وفي الملك فرصة مساومة.

*

فرار بيريز واللجوء إلى أراغون

نجح بيريز في الهروب بمساعدة أنصار الأميرة ، ولجأ معها إلى إمارة **أراغون** التي تمتعت بشيء من الحكم الذاتي. هناك احتميا

في **كنيسة ساراغوسا**، التي كانت تحت حماية الفاتيكان، فغدا الملاذ الديني حصنًا للتمرد السياسي. رفع أهل أراغون شعار الثورة

" الحرية يا شعب إسبانيا... ثوروا على الطاغية."!

لم يحتمل فيليب هذا التحدي، فأرسل جيشه عام 1592 ليقتحم الإمارة، وشنق المئات من الثوار، بينهم الدوق دي لانوزا ، لكنه hesitated طويلًا قبل اقتحام الكنيسة خوفًا من غضب البابا. ومع ذلك، لم يجد في الداخل أحدًا: فقد كان بيريز ومندوزا قد فرا إلى إنجلترا، حيث وجدا الحماية في قصور الملكة إليزابيث.

*

من المؤامرة إلى الأرمادا

تحوّلت الورقة الضائعة إلى هاجس يطارده فيليب لسنوات، حتى جعلها ذريعة لحربه الكبرى. ففي عام 1588 (وليس 1593 كما اعتقد بعض المؤرخين في مصادر متأخرة)، أرسل الأسطول الإسباني "الأرمادا" ليغزو إنجلترا. لكن عاصفة بحرية ومعها مهارة الأميرال الإنجليزي **فرانسيس دريك** أغرقت الأسطول وأغرقت معه أوهام الملك. كان ذلك لحظة الانكسار الإمبراطوري: من قوة عظمى تحكم نصف العالم إلى قوة ثانية تنهكها الحروب الداخلية والديون.

*

البعد النفسي والفلسفي لشخصية فيليب

يمثل فيليب الثاني نموذجًا للملك الذي أسره خوفه من الخطيئة أكثر من أي عدو خارجي. لقد كان مهووسًا بالسيطرة على تفاصيل إمبراطوريته كما يسيطر الناسك على صلاته، لكنه في النهاية كان عبدًا لأهوائه النفسية: الغيرة، البارانويا، العشق المهووس، والخوف من الفضيحة.

إن الورقة الضائعة لم تكن مجرد دليل قانوني، بل رمزًا لفشل مشروعه الوجودي: أن يمسك بكل الخيوط في يده، فلا يفلت شيء من قبضته، لا امرأة، ولا وزير، ولا إمبراطورية. لكن الورقة

أفلتت، كما أفلتت إنجلترا، وكما أفلت التاريخ نفسه من سلطته المطلقة.

مصائر الشخصيات

- **أنطونيو بيريز** :خذل مندوزا بعد هربهما، وعاد إلى زوجته، فدفعت به هي إلى الموت مسمومًا عام 1611.
- **آنا دي مندوزا** :عاشت بعده ثلاثين عامًا، عادت إلى إسبانيا لتقضي آخر أيامها في قصورها، وتموت عام 1645 وقد صارت ذكرى مثيرة للفضائح والأساطير.
- **فيليب الثاني** : مات عام 1598 بعد سنوات من الهزائم والإخفاقات المتتالية ، وقد غلبه المرض والهواجس النفسية ، تاركًا وراءه إمبراطورية مثقلة بالديون والانقسامات.
- *

خاتمة رمزية

إن قصة "الورقة الملعونة" ليست مجرد واقعة سياسية أو مؤامرة غرامية، بل صورة رمزية لزمن كامل. لقد كانت إسبانيا في عهد فيليب الثاني ورقة بيده: مزخرفة بخاتم الملك، لكنها هشة أمام رياح التاريخ. غرقت الأرمادا، وسقطت الإمبراطورية، وبقيت الورقة المفقودة شاهدًا على أن أعظم الممالك يمكن أن تنهار لا بمدافع الأعداء فقط، بل بأهواء الملوك وهواجسهم التي لا تُروى.